فلسفةُ الأخلاقِ في القرآن
بمنظور رسائل النور

الدكتور جمال أحمد سعيد المرزوقىΨ

أولاً : "النورسي" الرجل والدور:

أ – ''حيرة'' لمن يكتب عن النورسي ورسائل النور :

قد لا أجد مبررًا للحيرة التي سكنتني واحتوت نفسي وعقلي، بعد أَنْ قرأت ''كليات رسائل النور''، أو هكذا ظننت أني قرأتها، فالأقرب إلى الصواب، تعبيرًا عن حالتي مع رسائل النور، أنْ يظل المرءُ في قراءة متواصلة لها، ينكشف له جديدٌ مع كل قراءة، فالرسائل خزنية تنتظر الاكتشاف، كلما نظرت فيها، وتأملتها وعشت معها، وإن شئت الدقة، عايشتها، تضع يديك على الكثير من الكنوز المعرفية، وهذا راجعٌ إلى أن ''رسائل النور'' باقةٌ مختارة من جنان القرآن الكريم، المستوعب للعوالم والأكوان، فاضَّ ومَنَّ بها الحق تعالى على شيخنا النورسي.[1]

فالرسائل مفعمة بالمنقول الإلهي، والمؤيد والمعزز بالمعقول الكوني، وفيها عبير رياض الرحمن المبارك ونفحاته، ونوره وضياؤه، ترى الجمال والجلال يسريان جنبًا إلى جنب في كلماتها وسطورها، الجمال يُغرينا بسمو الفكر وشرف العدل وحب الحق، وعشق الفضيلة، وأداء الأمانة، والشغف بالواجب، بينما يفجر الجلالُ فينا ينبوعًا دفاقًا من القوة، ويهبنا البسالة والشجاعة، ويمنحنا الحمية والأنفة والاستعلاء على الجبن والخوف.[2]

أقول قد لا أجد مبررًا لهذه الحيرة، بعد أن عايشت ''رسائل النور'' وهممت بالكتابة عن جانب من الجوانب العديدة التي احتوتها – فلسفة الأخلاق في القرآن بمنظور رسائل النور – أبلغ من بعض عبارات تضمنتها رسالة بعث بها الأستاذ أديب إبراهيم

Ψ ولد سنة 1951 في القليوبية – مصر. أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف المساعد كلية الآداب – جامعة عين شمس القاهرة – العباسية. له أبحاث في مجال إختصاصه كثيرة ويشرف على العديد من أطروحات الدراسات العليا.

الدباغ إلى السيد إحسان قاسم الصالحي، بمناسبة أن الأخير نوى كتابة سيرة ذاتية للأستاذ النورسي مستخلصة من تراثه الفكري والإيماني، تقول هذه العبارات :

" لابد للحقيقة من أن يتناولها قلم حار وإلا ظلت باردة غير قادرة على التحريك والتحفيز، فأنت – ياعزيزي – تتناول بقلمك شخصية حارة ملتهبة، تتفجر حيوية، وتتدفق أفكارًا حارة لاهبة، فليكن قلمك مغموسًا بهذا اللهب الإيماني النوراني لكي يلهب الأفكار وينير القلوب، فالرجل الذي نكتب عنه، لم يكن في يوم من الأيام عاديًا أو تقليديًا في كل ما كتب وترك من تراث، وبالتالي وجب التأني في الكتابة عنه، ووجب ألا تكون الكتابة باردة فتقتلها البرودة في مهدها، صحيح أن العلمية مطلوبة والحقائق تفرض نفسها فرضًا على المؤلف، ولكن لابد للحقيقة من أن يتناولها قلم حار يقترب من مستوى حرارة وحيوية الأفكار التي سيكتب عنها.

ومن هنا جاءت حيرتي، كيف يتوفر للكاتب عن شخصية النورسي وفكره، حرارة وحيوية وصدق وتدفق وإيمان، هذه الشخصية التي ألهبت الأفكار وأنارت القلوب.

ب – حياة النورسي بذرة لخدمة القرآن الكريم:

وإمامنا النورسي أشهر من أن يُعرف به، فهو "بديع الزمان سعيد النورسي"، وبديع الزمان لقبه، وسعيد اسمه، والنورسي نسبة إلى مسقط رأسه، قرية نورس التابعة لناحية "اسباريت" المرتبطة بقضاء "خيزان" من أعمال ولاية "بتليس " له سبعة عشر مؤلفًا باللغة العربية[3]، وبقية المؤلفات باللغة التركية [4]، يتكلم باللغة التركية والكردية، ويقرأ ويكتب باللغة العربية والفارسية.

ولد سنة 1877م / 1294هـ، وتوفي يوم الأربعاء، الخامس والعشرين من رمضان سنة 1379هـ / 23 مارس 1960م، ودُفن في مقبرة "أولو جامع" بمدينة "أورفة"، وبعد مرور خمسة أشهر على وفاته، قامت السلطات بنقل رفاته إلى مدينة "اسبارطة" حيث دفن في مكان ما لا يزال مجهولاً.[5]

جرت أكثر أحداث حياة شيخنا النورسي خارجة عن طوق اقتداره وشعوره وتدبيره "إذا أعطيت لها سير معين ووجهت وجهة غريبة لتنتج هذه الأنواع من الرسائل التي تخدم القرآن الحكيم، بل كأن حياتي العلمية كلها بمثابة مقدمات تمهيدية لبيان إعجاز القرآن بـ "الكلمات".[6]

وهو، باقتناع تام وبخالص نيته، لا يتكلف التواضع ونكران الذات، "إن خدماتي وأحداث حياتي قد أصبحت في حكم بذرة، لكي تكون مبدءا لخدمة إيمانية جليلة، قد

منحت العناية الإلهية منها في هذا الزمان شجرة مثمرة برسائل النور النابعة من القرآن الكريم [7] فحياة النورسي – وبكل ما فيها من ثراء وفاعلية – بذرة لخدمة القرآن الكريم.

ودرس النورسي في ظل منهجية التعليم في زمانه علومًا شتى، هي مسالك متنوعة لإيصال الإنسان إلى الله الخالق سبحانه وتعالى، فهو قد درس طرق الكلام والفلسفة والتصوف المعرفية، غير أنه لم يقتنع بأي طريق من تلك الطرق في دعوته لإنقاذ الإيمان، وإنما اتبع طريق القرآن وحده للوصول إلى الله، لأنه أقرب الطرق إلى إثارة الفطرة الإنسانية، وتحريك العقول الباحثة عن الحق، والقلوب العامرة بالتوثب الدائم، وأكثر الطرق انطباقًا على آيات الأنفس والآفاق.[8]

وتأتي ''رسائل النور'' نوافذ تظهر في غاية الصفاء والتناسق والوئام، تلك المعرفة الإلهية التي تعتمد على القرآن وحده، الذي هو كتاب الكون الأكبر الذي يجد الإنسان فيه حقيقة الحياة وحقيقة وجوده معًا، بحديث في غاية الوضوح، وبأدلة في غاية اليقين.

وفي مقارنة بين نتائج حكمة الفلسفة، وحكمة القرآن وما يعطيه كل منهما من تربية للمجتمع الإنساني،[9] يقول النورسي:

'' أما ما تعطيه حكمة الفلسفة وحكمة القرآن من تربية للمجتمع الإنساني فهي، أن حكمة الفلسفة ترى ''القوة'' نقطة الاستناد في الحياة الاجتماعية، وتهدف إلى ''المنفعة'' في كل شئ، وتتخذ ''الصراع'' دستورًا للحياة،وتلتزم بـ '' العنصرية'' والقومية السلبية رابطة للجماعات، ومن المعلوم أن من شأن القوة هو ''الاعتداء'' وشأن المنفعة هو ''التزاحم'' إذ لا تفي لتغطية حاجات الجميع وتلبية رغباتهم، وشأن ''الصراع'' هو ''النزاع والجدال''، وشأن ''العنصرية'' هو ''الاعتداء'' إذ تكبر بابتلاع غيرها وتتوسع على حساب العناصر الأخرى، ومن هنا تلمس لِمَ سُلبت سعادة البشرية من جراء اللهاث وراء هذه الحكمة.[10]

أمّا حكمة القرآن الكريم، فهي تقبل ''الحق'' نقطة استناد في الحياة الاجتماعية، بدلاً من ''القوة''، وتجعل ''رضى الله سبحانه''، ونيل الفضائل هو الغاية بدلاً من ''المنفعة''، وتتخذ دستور ''التعاون'' أساسًا في الحياة، بدلاً من دستور ''الصراع''، وتجعل غاياتها الحدّ من تجاوز النفس الأمارة، ودفع الروح إلى معالي الأمور، وأشباع مشاعرها السامية لسوق الإنسان نحو الكمال والمثل الإنسانية.[11]

وموقف النورسي من الفلسفة من حيث هي ليس موقفًا عدائيًا، وهو يؤمن بطريق العقل المنطقي مصدرًا من مصادر المعرفة، ولكنه يرفض تحريف العقل من خلال مذاهب فلسفية معينة ترفض مبادئ الدين الحق ''الوحي الإلهي''، استمع إليه يقول :

"... فالفلسفة التي تخدم الحياة الاجتماعية، وتعين الأخلاق والمثل الإنسانية وتمهد للرقي الصناعي، فهي في وفاق ومصالحة مع القرآن، بل هي خادمة لحكمة القرآن، فلا تعارضها ولا يمكنها ذلك، وأما الفلسفة التي غدت وسيلة للتردي في الضلالة والإلحاد والسقوط في هاوية المستنقع الآسن للطبيعة، فإنها تنتج السفاهة واللهو والغفلة والضلالة وتعارض الحقائق القرآنية.[12]

فأنت تجد أن النورسي انطلق من قلب القرآن إلى أعماق الأنفس والآفاق في ترابط كوني رائع، يُريح العقل ويستولي على القلب، وصاغ فكره من أسماء الله الحسنى بناءً كونيًا متناسقًا، يُشكل نظرة الإنسان المسلم إلى الكون والحياة والمجتمع والإنسان، وينقذ الإنسان العصري الحاضر من غربة قاتلة وفصام نكد، مع أثار رحمة الله التي تغمر الحياة، من خلال قيم مجموعة موحدة [13]، فقدم لنا من خلال أكثر من مائة وثلاثين رسالة عميقة، انبثقت من هدى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، شرحًا لأصول العقائد الإسلامية بأدلتها العقلية والعلمية القاطعة الدامغة، وقدم لنا أيضًا مذهبية الإسلام الشاملة في الكون والحياة والمجتمع والإنسان، بدقائقها ومقدماتها ونتائجها، قدم لنا علاجًا للمشكلات الخطيرة التي أثيرت في عصره أمام الإسلام، والشبهات التي نثرت بتعمد من حوله، وذلك بمنطق يبتعد عن قيود المصطلحات الكلامية، وجمود المقدمات الفلسفية التي تزيد في الحيرة، دون أنْ تنقذ – هذه القيود الكلامية وهذا الجمود الفلسفي – في عصرنا هذا عقيدة أو تبني إيمانًا، أو تدخل إشراق الروحانية الإسلامية المتزنة في كيان الإنسان المسلم.

ج – بعض النواحي اللامعة في شخصية النورسي:

جاءت حياة شيخنا بين قوم انحسرت اللغة العربية عنهم، وأصبحوا في الغالبية الغالبة منهم لا يتكلمونها، فالنورسي إنسان غير عربي، يكشف من أسرار القرآن الكريم وإيحاءاته ومراميه وبلاغة ألفاظه وتراكيبه ونظمه وأبعاده والحكمة فيه، وهذا شئ يكاد يكون معجزة، وأمر يدعو للدهشة والإكبار حقًا.

ومن النواحي اللامعة أيضًا في شخصية النورسي، أنه كان مؤثرًا غاية التأثير على سامعيه، مقنعاً لمن يريد أن يقتنع منهم، وهذه الملكة مكّنت لهم من نفوس طلابه، وجعلتهم طاقة مقتدرة على حمل رسائل النور إلى كل مكان تمكن للإيمان وترشد إلى العمل الصالح وتغرس السلام الاجتماعي والتعاون المحبة، وتُرسى دعائم الأمة الإسلامية السعيدة في الدارين.[14]

فمن يتأمل ''رسائل النور'' يجدها تركز على تربية النفس البشرية وغرس الحقـــائق الإيمانية فيها وصبغها بها، لتصبح هذه الحقائق سلوكًا وحركة إنسانية تعمر الكون على سنة الله ورسوله، وخصوصًا وأن النورسي وجد نفسه يعيش في مجتمع إسلامي غاب عنه الوعي الإيماني العميق، وكان لابد أن يعود، فكانت رسائل النور.

وقضية الإسلام الملحة عند شيخنا النورسي ليست قضية صراع سياســـي يمكـــن أن يغلب فيه أو أن يكون مغلوبًا، إنما هي قضية صراع حضاري رهيب، لا يمكن أن يغلب فيه الإسلام، إذا عرفه العالم على حقيقته، واعتقده وآمن به، لذا فهو يرى أن أوربا التي تمثل قمة حضارة اليوم يمكن أن تخفى في رحمها جنين الإسلام، إذا فهمته واستوعبته، وأن هذه الرحم ستنشق عن هذا الوليد يومًا ما ليدرج في أحضان الغرب، وينمو ويكبر ويبلغ أشده.[15]

وقد وعى النورسي وأدرك همه وهدفه ورسالته، وقرر مستعينًا بالله تعالى وحده، أن يضحي بالغالي والرخيص من أجل تحقيق هذا الطموح، وتجسيد هذه الرسالة، وكان أن نـــزل إلى الميدان مدافعًا عن دين الله، مجاهدًا في سبيله، ضحي في سبيل إنقـــاذ الإيمـــان وإيقاظ الأمة بكل شئ، بالدنيا كلها، راحة ومالاً ومنصبًا، فنفى، وســـجن، وشـــرد، ولوحق، حتى آخر لحظة من لحظات حياته المثمرة المباركة، وهو على فراش الموت.[16]

وما أجمل وأبلغ وأعمق عبارته التي يخاطب بها البائسين الذين سقطوا في درك الكفر المطلق، الذين باعوا دينهم بدنياهم، الذين زعموا أن الإلحاد ضـــرب مـــن متطلبـــات السياسة، وأن النورسي، برسائل النور، يُفسد عليهم مدنيتهم، ويحول دون تمتعهم بمباهج الحياة وملذاتها، تقول كلمات هذه العبارة:

ألا فلتعلموا جيداً، بأنه لو كان من الرؤوس بعدد ما في رأسي من شعر، وفصـــل في كل يوم واحد عن جسدي، فلن أحني هذا الرأس الذي نذرته للحقائق القرآنية، أمـــام الزندقة والكفر المطلق، ولن أتخلى بحال من الأحوال عن هذه الخدمة الإيمانية النورية، ولا يسعني التخلي عنها.[17]

ولا شك أن رجلاً بمثل هذه القوة والشجاعة والثبات والإيمان بـــالحق، والاعتـــزاز بالعقيدة وبالانتساب إلى أفضل نسب وأعزه وأكرمه، نسب الدين الإسلامي، لا شك أن مدافعًا عن دين الله، مجاهداً في سبيله، كالنورسي، فدائيا باع الـــدنيا كلـــها في ســـبيل الآخرة، ومرضاة الله ونفع الناس، نُفي وسجن وشرد، وكل همه إرشاد أهل القـــرآن إلى حقائق الإيمان، وحثهم على احترام الفكر الإيماني، واعتباره الحياة التي لا غـــني لحيـــاتهم الإيمانية عنها.

أقول لا شك أن النورسي الذي تجسدت فيه كل هذه القيم، كان مُحاطاً بالعناية والفضل الآلهية، وكفى بهما سنداً وعوناً لأن يبرهن للعالم أجمع."أن القرآن الكريم شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها".

وتأمل معي جميل عبارته التي يقول فيها:

"فتلك الفتوحات التي هيأتها العناية الإلهية لرسائل النور، جعلتني أحب تلك الحياة الضجرة القلقة المضطربة، بل جعلتني أُردد ألف شكر وشكر للبارئ سبحانه وتعالى.."

حقا فقد جعلته هذه الفتوحات التي هيأتها العناية الإلهية، راضياً بجميع المشقات الآتية على شخصه، وبكل سرور وامتنان، ويضحي بروحه ونفسه قبل جسده، في سبيل سلامة ‘‘رسائل النور’’ وسلامة ‘‘طلاب النور’’.

ثانيا: " مشكلة الشر" في رسائل النور:

أ – " الشر" ليس أصلا في العالم، وإنما سبيل لمعرفة الخير:

الوجود عند النورسي خير محض، ونور وجمال، والعدم شر محض وظلام وقبح، ويصدر الخير من الخير المطلق تبارك وتعالى، من الجميل المطلق عز وعلا، ولا يصدر من الحكيم المطلق سبحانه العبث البتة.

ويذهب النورسي إلى أن الكمال والخير والحسن في الكائنات هي المقصودة بالذات، وهي الكليات، وأن الشر والقبح والنقصان جزئيات بالنسبة إليها قليلة تبعية مغمورة في الخلقة، خلقها خالقها منتشرة بين الحسن والكمال، لا لذاتها، بل لتكون مقدمة وواحداً قياسيا لظهور – بل لوجود – حقائق الخير والكمال والحسن.[18]

فالخيرهو الأصل في العالم وكل ما ينـزل بالحياة جميل وحسن، حتى الأوضاع التي تتسم بالآلام والمصائب – من وجهة نظرنا ورؤيتنا القاصرة – حتى هذه، أنوار جمال لطيف تشف عن لأشعة رحمة ضمن لمعات الحكمة الإلهية، إظهار لأحكام بعض الأسماء الحسنى.[19] والمحصلة أن الضلالة والشر بأكثريتها المطلقة شئ عدمي وسلبي وغير أصيل، وهي إخلال وتخريب، أما الهداية والخير، فهي بأكثريتها المطلقة ذات وجود وشيء إيجابي وأصيل وهي أعمار وبناء [20] والشر ملازم للخير، والاثنان نقيضان في الحياة لكنهما دائما رفيقا درب وطريق، مادامت الحياة، ومادام الإنسان حيا يرزق، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، ليحاسب الأشرار ويجزي الأخيار.

الخير والشر – عند شيخنا النورسي – عنصران موجودان في كل مكان، تتصارع آثارهما وثمارهما بعضها مع البعض الآخر، وينتج عن هذا، التغير الدائم والتبدل المستمر،

وفروع وأغصان هذين العنصرين المتضادين ونتائجهما سيمتدان ويستمران حتى يوم القيامة، وستفرقان أخيراً إلى جنة وإلى جهنم.[21]

فالخطيئة لن تختفي أبداً من حياتنا، وما علينا أن نفعله أن ندرس ونبحث لماذا يخطئ الناس، وما الذي أوصلهم إلى مستنقع الرذيلة ووحل الخطيئة، فإذا عرفنا تجنبنا الوقوع في مثل ما وقعوا فيه.

وإليك بعض التفصيل لرؤية النورسي في مسألة الشر، والمستمدة أساساً من القرآن الكريم ن والتي تبصرنا بحقيقة أن الطريق الوحيد للتخلص من الشرور، من الخطيئة، هو طريق السير في نور التوحيد بكل إيمان وبكل محبة.

يحدثنا شيخنا النورسي في ''كليات رسائل النور" عن حياة الغربة والأسر التي أضطر إليها، وما تضمنته من شعوره بآلام كبيرة، إضافة إلى إحساسه ألام إخوانه ووطنه، بل والإنسانية جمعاء، بما مَنَّ الله عز وعلا عليه برقة إنسانية شفوقة موجودة في فطرته جعلته مهتمًا ومهمومًا بالعالم الإسلامي اهتمامه بداره ووطنه، بل إن شيخنا كان يتألم حتى لآلام الحيوان[22] ويظهرنا النورسي على هدفه من عرض جروحه المؤلمة هذه، وهو بيان كيف أن الترياق القدسي للقرآن الحكيم، شفاء ناجع ونور لامع لهذه الجروح [23]، ونجده يحدثنا عن شرور أخري – على الأقل من وجهة نظرنا غير المتعمقة – إضافة إلى هذه الشرور الأخلاقية، كالمصائب والأمراض والأوبئة والزلازل والفيضانات والموت، أقول يحدثنا عنها شيخنا من خلال رؤيته الجمالية لكل ما يحدث في هذه الدنيا، وبنص عبارته:–

''هذه الدنيا حديقة متجددة على الدوام، تظهر في مراياها تجليات الأسماء الحسنى للصانع ذي الجلال، ومزرعة لغراس الآخرة [24]، وهو أيضًا يفسر وجود الشر، سواء أكان أخلاقيًّا أم طبيعيًّا – تفسيراً يتلائم ويتوافق مع العلم والقدرة والإرادة والرحمة والشفقة والعناية الإلهية.

وتبدو رؤيته الجمالية لكل ما يحدث في هذه الدنيا، في كثير من عباراته التي ضمنها ''وسائل النور"، استمع إليه مثلاً يقول:

'' إن كل شئ في الكون ينطوي على خير، وفيه جمال وحسن، أما الشر والقبح فهما جزئيان جدا وهما بحكم وحدتين قياسيتين، أي أنهما وجدا لإظهار ما في الخير وما في الجمال من مراتب كثيرة وحقائق عديدة، لذا يعد الشر خيراً والقبح حسناً من هذه الزاوية، أي من زاوية كونهما وسائل لإبراز المراتب والحقائق[25] وهو يقول أيضاً :

'' لقد تحققت لدي العقول السليمة، أن الخير هو الأصل في العالم، أما الشر فهو تبعي، فالخير كلي والشر جزئي، وثبت بشهادة العلوم جميعها وبتصديق الاستقراء التام

الناشئ من نظر الحكمة، أن الحسن والخير والحق والكمال، هو المقصود بالذات والغالب المطلق في خلق العالم، أما الشر والقبح والباطل، فهي أمور تبعية ومغلوبة ومغمورة، وحتى لو كانت لها الصولة فهي صولة مؤقتة''.[26]

وما نطلق عليه اسم ''الشرور" لكثير من الحوادث ليس شراً، فللأشياء، وللحوادث اتجاهات وزاويا مختلفة، إذ قد يبدو شيء ما شرا من زاوية معينة، وخيرا من زاوية أخري، فهناك حوادث يبدو ظاهرها سيئًا وقبيحا ومشوشا، ولكن جمال براق خلف الستار الظاهري [27] لها حتى أن القرآن الكريم يشر إلى هذا الخصوص بشكل واضح {**وعَسَى أَن تَكْرَهُوا شيئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحبُّوا شيئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ** } [البقرة : 216]؛ والسطحية، والتطلع إلى القشور، والاكتفاء بمطالعة الظاهر وراء حكم الإنسان بقبح شئ ما، وإطلاق إسم ''الشر" عليه، وهذا الخداع معرفي ينبهنا إليه النورسي ويحذرنا منه.[28]

ويحدثنا النورسي عن حكمة مزج الشر بالخير، وأن الشر هو سبيلنا لمعرفة ''الخير"، إذ لا معنى للعافية دون وجود المرض، ولا نتذوق لذة الصحة إن لم نجرب المرض فيقول :

'' أن الشر في الكون والمخلوقات ليس هدفا لذاته، وأنا هو وحدة قياسية لتنقلب حقيقة واحدة للجمال إلى حقائق كثيرة، والشر كذلك، بل حتى الشيطان نفسه، إنما خلق وسلط على البشرية ليكون وسيلة لترقيات البشر غير المحدودة نحو الكمال التي لا تنال إلا بالتسابق والمجاهدة، وأمثال هذه الشرور والقبائح الجزئية خلقت في الكون لتكون وسيلة لإظهار أنواع الخير والجمال الكليين.[29]

وهو يقول أيضاً :

'' إن قبحًا يكون سببًا لإنتاج أنواع من الجمال أو سبباً لإظهارها، يعد كذلك جمالاً، وإن انعدام قبح يؤدي إلى إخفاء كثير من الجمال، وإلي عدم ظهوره، لا يعد قبحا واحداً، بل أضعافا مضاعفة من القبح"[30]، بل إن الشر القليل يفتقر بل يستحسن لأجل الخير الكثير، لأن في ترك الخير الكثير لأن فيه شراً قليلا شرٌ كثيرٌ، وفي نظر الحكمة إذا قابل الشر القليل شرًا كثيرًا صار الشر القليل حسناً بالغير.[31]

وعن ملازمة الشر للخير، وأنهما دائماً رفيقًا درب وطريق، وعنصران موجودان في كل مكان حتى يرث الله الأرض، يقول النورسي :

'' إن الله جل جلاله لما أراد أن يبدع عالما للإبتلاء والامتحان لحكم كثيرة تدق عن العقول، وأراد تغيير ذلك العالم وتحوله لحكم، مزج الشر بالخير، وأدرج الضر في النفع، وأدمج القبح في الحسن، فوصلها بجهنم وأمدها بها، وساق المحاسن والكمالات تتجلي في

الجنة، وأيضاً لما أراد تجربة البشر ومسابقتهم وأراد وجود اختلافات وتغيرات فـــيهم في دار الابتلاء، خلط الأشرار بالأبرار، ثم لما انقضي وقت التجربة، وتعلقت الإرادة بأيديهم جعل الأشرار مظهر خطاب { **وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُون** } [سورة يس:59].

وصير الأبرار مظهر تلطيف وتشريف {**فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**} [سورة الزمر: 73]، ولمـــا امتاز النوعان تصنعت الكائنات فانسلت مادة الضر والشر عن عنصر النفـــع والخـــير والكمال، فاختارت جانباً، والحاصل: انه لو أمعن النظر في الكائنات صـــودف فيهـــا عنصران أساسان، وعرقان ممتدان إذا تحصلا وتأبدا صار جنة وجهنم". [32]

وتشكل المصائب والشرور – في رأي شيخنا – جزءاً من نتـــائج القـــوانين العامـــة والكلية التي تمثل الإرادة الكلية للسلطنة الربانية فقط، فهذه الشرور الجزئية – إذن – من مقتضى سريان وجريان هذه القوانين، ويري النورسي أن الله تعالي يقوم بتجليات خاصة بمحافظة الإنسان من الشرور الجزئية التي تظهر للوجود عند قيام القوانين الكلية بـــإجراء فعاليتها، ويسرع – عز وجلا – إلى نجدته ويوصل رحمته إليه إما مباشـــرة أو بوســـاطة عبادة ودعاء ذلك الإنسان.

واستنادا إلى هذه الرؤية التي تري الأشياء تجليات الأسمـــاء الحســـنى للمبـــدع ذي الجلال، ينظر النورسي إلى التلف والتخريبات والمرض والشيخوخة والموت و "حتى خلق الشيطان خير وجميل من هذه الزاوية، لأنه وسيلة للمنافسة والمسابقة والنضال، الذي هو المحرك لظهور الفروقات والتمايزات المعنوية.[33] وما أجمل عبارته التي يقول فيهـــا:

" إن حياة على وسادة الراحة ليست وجود خير محض، بل هي أقـــرب اتجاهـــا إلى العدم وإلى الشر المحض". [34]

ب – الموت خيرٌ و"باب الرحمة" لأهل الإيمان:

مادام الله موجودًا، وعلمه يحيط بكل شئ، فلابد ألا يكون هناك في عـــالم المـــؤمن، عدم، وإعدام، وانعدام وعبث، ومحو وفناء، من زاوية الحقيقة، بينما دنيا الكفار زاخـــرة بالعدم والفراق والانعدام ومليئة بالعبث والغناء، والإيمان مثلما ينقذ الإنسان من الإعدام الأبدي أثناء الموت، فهو ينقذ دنيا كل شخص أيضًا من ظلمـــات العـــدم والانعـــدام والعبث، بينما الكفر – ولا سيما إن كان مطلقًا – فأنه يعدم ذلك الإنسان، ويعدم دنياه الخاصة به بالموت، ويلقيه في ظلمات جهنم معنوية محولاً لذائذ حياته آلاما وغصصاً. [35]

الموت – في رسائل النور – ليس إعدامًا، ولا عبثًا ولا ســـدى ولا انقراضًـــا، ولا انطفاءً، ولا فراقًا أبديًّا، بل هو تسريح من لدن فعال حكيم رحيم، وتبديل مكان وتغيير

مقام، وسوق نحو السعادة الخالدة، حيث الوطن الأم، الوطن الأصلي، أي هو باب وصال لعالم البرزخ، فالموت – ومهما يبدو ظاهرًا إنحلالاً وانطفاء – إلا أنه في الحقيقة مبدأ ومقدمة لحياة باقية للإنسان وعنوان لتلك الحياة، مثلما تضمر البذرة تحت الأرض وتموت ظاهرًا، إلا أنها تمضي باطنا من حياة البذرة الجزئية إلى حياة السنبل الكلية.

ومادامت هذه هي ماهية الموت – من زاوية الحقيقة – فلا ينبغي أن ينظر إليه كأنه شئ مخيف، بل يجب اعتباره تباشير الرحمة والسعادة [36]،وتأمل معي عبارة النورسي التي يقول فيها :

" اعلم إن في إكثار ذكر القرآن لمآل {**إِلَيْه مَرْجِعُكُمْ**} [الأنعام:60]، {**وإليه تُرْجَعُون**} [البقرة:28]، {**وَإليه الْمَصير**} [المائدة: 18] {**وَاليَه المَآب**} [الرعد: 36]، بشارة عظيمة – وإن تضمنت للعاصي تهديدا – إذ تقول هذه الآيات للناس، إن الموت والزوال والفناء والفراق من الدنيا، ليست أبوابا للعدم والسقوط في ظلمات الغناء والانعدام، بل أبواب للقدوم والذهاب إلى حضور سلطان الأزل والأبد". [37]

فالموت في رؤية شيخنا القرآنية، بداية رحلة جديدة من الحياة تأتي بعد أن يسلم المرء الروح ليبدأ مرحلة حياتية أشرف وأسمي من تلك الحياة المرئية المألوفة، والموت بهذا هو ممر الخلوص إلى الحياة الأشرف، وتأمل حديث النورسي عن هذا المعني السامي اللطيف الذي تضمنته الآية الكريمة: {**تَوَفَّني مُسْلمًا وَأَلْحقْني بالصَّالحينَ**} [يوسف : 101] ففي الأثناء التي كان يوسف – عليه السلام – فيها في ذروة السعادة والسرور، بعد أن أقر الله عينه ولقي والديه وتعارف وتحاب هو وأخوته، في هذه الأثناء تخبر الآية الكريمة أن يوسف – عليه السلام – نفسه، هو الذي يسأل ربه الجليل وفاته لينال سعادة أعظم من هذه السعادة التي ينعم بها يوسف وهو الأنيس بالحقيقة، إذ طلب الموت المر وهو في ذلك الوضع الدنيوي المفرح اللذيذ كي ينال تلك السعادة العظمي هناك. والموت أمر وجودي عبر عنه القرآن الكريم بقوله: {**الَّذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ليَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**} [الملك: 2] فهو مخلوق وهو نعمة كالحياة، فأما عن كون الموت أمراً وجوديا فإليك نص النورسي.

" إن الموت في حقيقته تسريح وإنهاء لوظيفة الحياة الدنيا، وهو تبديل مكان وتحويل وجود، وهو دعوة إلى الحياة الباقية الخالدة ومقدمة لها، إذا كما أن مجيء الحياة إلى الدنيا هو بخلق وبتقدير إلهي، كذلك ذهابها من الدنيا هو أيضا بخلق وتقدير وحكمة وتدبير إلهي". [38]

وأما عن كونه – الموت – نعمة كالحياة، فإن ذلك يتجلي في رؤية شيخنا النورسي في مظاهر عدة منها، أنه إنقاذ للإنسان من أعباء وظائف الحياة الدنيا، ومن تكاليف المعيشة المتصلة – وهو خروج من قضبان سجن الدنيا المظلم الضيق المضطرب، ودخول في رعاية المحبوب الباقي، وفي كنف رحمته الواسعة [39] والله تعالى هو الذي يهب الموت "ويميت"، أي هو الذي يسرحك من وظيفة الحياة، ويبدل مكانك في الدنيا الفانية، وينقذك من عبْ الخدمة، ويحررك من مسؤولية الوظيفة، أي يأخذك من هذه الحياة الغانية إلى الحياة الباقية.[40]

أضف الى ذلك، أنه كما أن الحياة برهان الأحدية، ودليل وجوب الوجود، فالموت دليل السرمدية والبقاء، فالموجدات تشهد بوجودها على وجوب الوجود، وتشهد بزوالها مع أسبابها، ومجيء أمثالها عقيبها على أزليته وسرمديته وأحديته، إذا أن تجدد المصنوعات الجميلة، وتبدل الموجدات اللطيفة وغروبها في طلوع أمثالها وأفولها في ظهور أشباهها، تشهد شهادة قاطعة على وجود ذي جمال سرمدي دائم التجلي، وعلى بقائه ووحدته.[41]

إن هذا التحليل العميق الذي قدمه النورسي للموت، وأنه ليس فناء ولا اضمحلالاً وانسحابًا، وإنما هو مجرد تحول ونقله إلى الأكمل والأشرف، وهو بذلك تباشير الرحمة والسعادة، أقول إن تحليل النورسي هذا مفيد كل الإفادة على اكثر من مستوى، فهو مفيد على المستوى العقدي لأنه ينصب على ظاهره الموت التي هي عتبة اليوم الآخر، وهو جزء من الغيب الذي يؤمن به كل مؤمن، كما أن هذا التحليل مفيد على المستوى النفسي، لكونه يكسب المرء إطمئنانا وانسجاما مع الذات، فهو إعلان عن بقاء الإنسان واستمراره واتصال حياته الأخرى بالأولى، وغير خاف أن فلسفة الموت عند شيخنا النورسي رفض لفلسفة العدم والإلغاء والتشاؤم التي أشاعتها الفلسفات المادية التي حصرت حياة الإنسان في بعد واحد وهو حياته في الدنيا، مما أصابه باليأس والتأزم والقلق والكآبة والعبثية.

أمّا وأن يكون الموت رحلة نحو حياة تقر النفس وتطمئن بها، لأن {**الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**} [العنكبوت :84]، فهذا يهون من شأن الموت، فلا يجعله ذلك الشبح المرعب الذي يفنى الإنسان ويدمره، ومثل هذا الإحساس يُكسب الإنسان شجاعة خاصة لمواجهة المشاق واقتحام الصعاب.

وليس أجمل من قول النورسي في الشعاعات.[42]

ان اثمن ما عند الإنسان، وأعظم ما يحرص عليه ويدافع عنه ويجهد في الحفاظ عليه، هو روحه بلا شك، والمؤمن يحس يقينًا – بفرح عميق إزاء تسليم الإنسان لأعز ما يملكه في الوجود – وهو روحه – إلى يد "قوي أمين" ليحفظه من العبث والضياع والفناء".

جـ – الإنسان منبع الشرور الأخلاقية:

يرى النورسي أن خلق الشر ليس شرًا، وإنما كسب الشر شر، لأن الخلق والإيجاد ينظر إليه من حيث النتائج العامة، فوجود شر واحد، إن كان مقدمة لنتائج كثيرة فإن إيجاده يصبح خيرًا باعتبار نتائجه، أي يدخل في حكم الخير.[43]

ويعطينا – كعادته دائمًا في تبسيط الفكرة وسرعة وصولها إلينا واستيعابنا لها – مثلاً لذلك، يقول :

"النار لها فوائد ومنافع كثيرة جدًا، فلا يحق لأحد أن يقول : إن إيجاد النار شر، إذا ما أساء استعمالها باختياره وجعلها شرًا ووبالاً على نفسه، وكذلك خلق الشياطين وإيجادهم فيه نتائج كثيرة ذات حكمة للإنسان، كسموه في سلم الكمال والرقي، فلا يسيغ لمن استسلم للشيطان باختياره وكسبه الخاطئ – أن يقول : أن خلق الشيطان شرٌ، إذ قد عمل الشر لنفسه بكسبه الذاتي".[44]

وهو يذهب إلى أن سبب الشر يتمثل في عدم قبول الخير الوارد من الخير المطلق سبحانه قبولاً حسنًا، وأن النفس الإنسانية أمارة بالسوء وبالتالي فهي منبع الشرور الأخلاقية، ونطالع له "مونولوجًا" راقيًا ساميًا بينه وبين نفسه الغوية، يجسد لنا هذه المعاني، ومن خلاله يوجه النورسي نصحًا لكل نفس غوية مغرمة بالفخر معجبة بالشهرة هائمة وراء المدح والثناء.

تقول عبارات هذا المونولوج الجميلة الموحية:

" يا نفسي الغوية إن كانت بذيرة التين التي هي منشأ ألوف الثمرات، والساق النحيفة الصلبة التي تعلقت بها مئات العناقيد، إن كانت هذه الثمرات والعناقيد من عمل تلك البذيرة والساق ومن مهارتهما، لزم كل من يستفيد من تلك النتائج أن يبدي المدح ويُظهر الثناء لهما ! إن كانت هذه الدعوى حقًا، فلربما يكون لك حق أيضًا في الفخر والغرور لما حملت من النعم، بينما أنت لا تستحقين إلا الذم، لأنك لست كتلك البذيرة، ولا كتلك الساق، وذلك لما تحملين من جزء اختياري فتنقصين بفخرك وغرورك من قيمة تلك النعم وتبخسين حقها، وتبطلينها بكفرانك النعم، فليس لك الفخر، بل

الشكر، ولا تليق بك الشهرة، بل التواضع والحياء، وما عليك إلا الاستغفار وملازمة الندم، لا المدح، فليس كمالك في الأنانية، بل في الاستهداء.[45]

فالنفس ليست الفاعل ولا المصدر، بل المنفعل ومحل الفعل، وخلقت قابلة للخير، مرجع للشر، ولها تأثير، فعل، واحد فقط، وهو تسببها في الشر، عند عدم قبولها الخير الوارد من الخير المطلق قبولاً حسنًا.

وتتواصل كلمات النورسي الجميلة، فيقول:

"فيا نفسي ! لا تقولي إنني قد انتخبت من دون الناس كلهم، وهذه الثمرات إنما تظهر بوساطتي بمعنى أن لي فضلاً ومزية ! كلا... وحاش لله.. بل قد أعطيت تلك الثمرات لأنك أحوج الناس إليها، وأكثرهم إفلاساً، وأكثرهم تألمًا..".[46]

معنى ذلك أن النفس الإنسانية تأمر صاحبها بالسوء، ومن بينه وأخطره أن يُغرم الإنسان بالفخر، ويعجب بالشهرة، ويهيم وراء المدح والثناء، لمجرد أن بعضًا من الثمار، بعضًا من الخير، ظهر على يديه، فيظن أنه فاعله، وأنه مصدره، وتفويه نفسه بالفخر، وإنتظار المدح والثناء من الآخرين، والحقيقة أن هذه الثمار، ليست من عمل الإنسان، ولا من مهارته، وإنما هي فعل الفاعل الحق، المصدر الحق، الله تبارك وتعالى، وينبغي على المرء، الذي يظهر الحق تعالى على يديه، ومن خلاله بعض هذه الثمرات، بعض هذه النعم، ينبغي عليه الشكر والتواضع له عز وعلا، والحياء منه، فليس للإنسان أي فضل ومزية، كلا وحاش لله، "بل قد أعطيت تلك الثمرات له، لأنه أحوج الناس إليها، وأكثرهم إفلاسًا، وأكثرهم تألمًا".

وفي الإنسان – وكما يذهب إلى ذلك النورسي – قابلية عظمى للخير، وقابلية عظمى للشر، وهو – الإنسان – يستطيع الأولى، أي يستطيع أن يكون خيرًا، ويستطيع الثانية، أي أن يكون شريرًا، وذلك بما منّ الله تعالى عليه بنعمة التكليف وحمل الأمانة، وشرّفه بها، وسمي به منزلة فوق كل الكائنات، يقول شيخنا النورسي :

" إن في الإنسان جهتين، الأولى، جهة الإيجاد والوجود والخير والإيجابية والفعل، والأخرى جهة التخريب والعدم والشر والسلبية والانفعال، تتمثل الأولى في قبوله الخير الوارد من الخير المطلق، وفي إيمانه بالله وحده، وعبوديته له تعالى وحده، فإذا ما فعل الإنسان ذلك فاز بموقع مرموق فوق جميع المخلوقات، وتتمثل الجهة الثانية، في استنكاف العبد من العبودية وتجاهلها، وتباهيه بقدرته وأنانيته، وتخليه عن الدعاء والتوكل، وتكبره وهنا يستحق احتقار جميع الكائنات وازدرائها واستهجانها، بل إن تباهي الإنسان بقدرته وأنانيته إهانة للإنسانية وترذيل لها، تلك التي جعل لها الحق تعالي مقامًا عاليًا رفيعًا، ووظيفة سامية حين شرفها بحمل الأمانة، بالتكليف،بالعبودية له تعالى.

وإذا ما تخلى الإنسان عن أنانيته، وترك اتباع هوى النفس، واكتمل عبدًا لله تعالى تائبًا مستغفرًا ذاكرًا له سبحانه، فسيكون مظهرًا للآية الكريمة: {**يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**} [الفرقان:70] فتنقلب القابلية العظمى عنده للشر، إلى قابلية عظمى للخير، ويكتسب قيمة أحسن تقويم، فيحلق عاليًا إلى أعلى عليين[47].

وهكذا يُقوِّم شيخنا – وينصح كلاً منا بذلك – نفسه الأمارة بالسوء، تلك النفس الجاهلة المتفاخرة المغرورة المرائية المعجبة بنفسها، ويعود بها إلى التحليق عاليًا إلى أعلى عليين، بالشكر والتواضع والحياء والاستغفار والاستهداء، وفي كلمة واحدة، في تمام العبودية للحق تبارك وتعالى.

فالإنسان هو منبع الشرور الأخلاقية، وبالتالي وجب عليه إصلاح أنانيته التي هي مصدر لمصائب ومعاصي كثيرة، أشنعها وأكثرها سوءً المصيبة الدينية، والتي تتمثل في الكفر سبب كل شرور، يقول النورسي:

"المصيبة الحقيقية هي المصيبة الدينية"[48] ذلك لأن الكفر شر وسوء وتخريب وعدم تصديق، ولكن هذا الشر والسيئة الواحدة تتضمن تحقيرًا للكون بأجمعه، وإهانة للأسماء الإلهية، وسخرية من الإيمان بأكمله، ذلك لأن الكفر يجر التجليات إلى العبث.[49]

والايمان يمثل العلاج من هذه المصيبة – وغيرها – على المستوى النفسي وعلى المستوى الكوني، والمؤمن هو الإنسان الذي وضع كل شئ،وحتى موقعه في الوجود على المستوى الكوني، في مكانه الصحيح، و"مادمنا نملك نعمة كبيرة لا تحد ونعمة ثمينة جدًا وقيمة جدًا مثل نعمة الإيمان، إذن فأهلاً بكل شئ، أهلاً بالشيخوخة وبالمرض، وأهلاً بالموت والوفاة "[50] ومع حلاوة الإيمان والرضا والقناعة يجب أن نمزق "الأنانية التي تغذيها النفس الأمارة"، ونظهر "هو" .[51]

وهكذا فأنت تجد أن الوجود – عند النورسي – كمالٌ ونور، هو الله تعالى الواجب الوجود، والقادر المطلق، والعالم المطلق والصانع ذو الجلال والإكرام[52]، ثم تأتي الأسماء الإلهية الحسنى، " فإذا نظرنا من زاوية الحقيقة نرى أن الكمال والجمال يعود إلى الأسماء الألهية الحسنى وإلى نقوشها وجلوها، فما دامت هذه الأسماء باقية وجلواها دائمية، إذن فلابد أن تجدد على الدوام وتنضر على الدوام وتجمل إذن فهي لا تتجه نحو العدم ونحو الغناء، بل ربما كانت في تغير وتبدل نسبي.[53]

وتجدر الإشارة هنا إلى أن النورسي يفترق عن القائلين "بوحدة الوجود"، ذلك لأنه مادام يرى وجودًا حقيقيًا للأشياء، ويرى إثباتًا معينًا لهذا الوجود، أي وجودًا نابعًا من قدرة القادر الأزلي[54]، لذا يقول:

"كل شئ هو" ليس صحيحًا، فالصحيح هو " كل شئ منه" ولذا فإن كل ما يشاهد في هذا الكون من اللطائف والمحاسن، وكل أنواع الكمال والاشتياقات

والإنجذابات وكل الأشواق والتراحم إنما هي ''معاني'' و''مضامين'' وكلمات معنوية تظهر بالضرورة وبالبداهة تجليات ألطاف وإحسان وكرم صانع هذه الكائنات ذي الجلال، للقلب وتفتح عين العقل''.[55]

د – نقد النورسي لمذهب "وحدة الوجود":

يلاحظ قارئ ''رسائل النور''، أن النورسي يعرض ويناقش المذاهب الفكرية المختلفة، كلامية، فلسفية، صوفية، وفي عبارة بسيطة واضحة، مقنعة، تكشف عن استيعاب تام لهذه المذاهب، ومن بينها مذهب ''وحدة الوجود''، وهو أشهر وأهم وأخطر وأصعب مصطلح صوفي فلسفي تناوله متفلسفة الصوفية المسلمون وغيرهم، وعرضوه في مصنفاتهم التي تركوها لنا، في لغة رمزية شديدة التكثيف بعيدة المنال حتى عن المتخصصين، يعرض شيخنا لهذا المذهب مبينًا مضمونه، والفروق الكثيرة بين تصور الماديين له، وتصور الأولياء – الصوفية – وتمييزًا أيضًا بين ''وحدة الشهود'' و''وحدة الوجود'' ومنتهيًا إلى أن المنهج القويم ليس هو الذي اتبعه أصحاب ''وحدة الوجود''، وليس هو الذي اتبعه أصحاب ''وحدة الشهود'' وإنما هو طريق الصحابة الكرام، وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون. كل هذا في لغة واضحة بسيطة يفهمها ويستوعبها القارئ العادي قبل المتخصص، وهذه هي إحدى سمات النورسي كمفكر مسلم أصيل، يطلع، ينفتح على الآراء الأخرى، ولكنه يعود دائمًا إلى روح وجوهر منبع أساسي يستقي منه، وهو القرآن الحكيم، وهذا يمثل سر أصالته وقوته وجاذبيته كمفكر مسلم، عاش آراءه،فلم يكن ثمة فجوة بين ما يعتقد وما يسلك.

وبداية تعني ''وحدة الوجود'' – كما يُعرفنا النورسي وكما هي في مصنفات أصحابها – ''حصر النظر في وجود ''واجب الوجوب''، أي أن الموجود الحق هو ''واجب الوجود'' سبحانه فحسب، وأن سائر الموجودات ظلالٌ باهته وزيف ووهم لا تستحق إطلاق صفة الوجود عليها خيال ''واجب الوجود''، فالموجودات الممكنة ''الممكنات والمخلوقات'' تصغر وتتضاءل عند أصحاب هذا المشرب بحيث تنزل عندهم إلى درجة العدم والوهم، أي أنهم ينكرون وجود الكون بجانب وجود الله تعالى الذي هو واجب الوجود.[56]

وحول سؤال عن رأي شيخنا في '' وحدة الوجود''، يجيب:

'' إنه '' مذهب وحدة الوجود''، استغراق في التوحيد، وتوحيد ذوقي لا ينحصر في نظر العقل والفكر، إذ أن شدة الإستغراق في التوحيد – بعد التوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية – يفضي إلى وحدة القدرة، أي : لا مؤثر في الكون إلا الله، ثم يؤدي هذا إلى

وحدة الإدارة، وهذا يسوق إلى ''وحدة الشهود''، ثم إلى '' وحدة الوجــود''، ومــن بعدها رؤية وجود واحد ثم إلى رؤية موجود واحد.[57]

ويرى النورسي أن سلطنة الألوهية تقتضي وجود أسماء حسنى حقيقية متعددة لهــا، أمثال الرحمن، الرزاق، الوهاب،الخلاق، الفعال، الكريم، الرحيم، وهذه الأسماء والصفات تقتضي كذلك وجود مرايا حقيقية لها، وحسب منطق أصحاب وحــدة الوجــود ''لا موجود إلا هو''، لا تجد أسماء الله الحسنى هذه، تجلياتها الحقيقية، بل تصــبح إعتباريــة ونسبية، بينما هذه الأسماء هي أسماء حقيقية كاسم ''الموجود''، ولا يمكــن أن تكــون ظلاً، وهي أصلية، لا يمكن أن تكون تابعة.[58]

لذا فإن اعتبار أسماء معينة من أسماء الله الحسنى أمثال '' الموجود'' الواحد، الأحــد، واجب الوجود'' هي الأسماء الحقيقية فقط، وتوهم الأسماء الحسنى الأخرى تابعة وظــلاً لها، حكمٌ غير عادل، وتنكب عن واجب الاحترام لهذه الأسماء الحسنى كما ينبغي.[59]

ومن هنا فهناك – كما ينبهنا النورسي – محاذير ومخاطر لهذا المشرب، أولها وأهمها، أن أركان الإيمان ستة، فهناك عدا ركن الإيمان بالله أركان أخرى كالإيمان بــالآخرة، فهذه الأركان تستدعي وجود الممكنات، أي أن هذه الأركان المحكمة لا يمكن أن تقوم على أساس خيالي.

فعلى صاحب هذا المشرب – وحدة الموجود – ألا يصحب معه هذا المشرب، وألا يعمل بمقتضاه عندما يفيق من عالم الاستغراق والنشوة، ثم إن عليه ألا يقلب هذا المشرب القلبي والوجداني والذوقي إلى أسس عقلية وقولية وعلمية، ذلك لأن الدساتير العقليــة، والقوانين العلمية، وأصول علم الكلام النابعة من الكتاب والسنة المطهرين، لا يمكنها أن تتحمل هذا المشرب، ولا تتسع لإمكانية تطبيقه، إذن فليس هذا المشــرب – وحــدة الوجود – في أعلى المراتب وأسماها، بل قد يكون ذا علو[60] إلا أنه ناقص في علوه.[61]

ويفرق النورسي بين ما لدى الفلاسفة الماديين – ومن وهنت عقيدتهم من المفكــرين – من مذهب ''وحدة الوجود''، وما لدى الأولياء منه، يقول:

''إنّ فروقًا كثيرة بين تصور الماديين للمذهب – وحدة الوجود – وتصور الأولياء – الصوفية، منها، أن علماء الصوفية قد حصروا نظرهم في ''واجب الوجود'' واستغرقوا التأمل فيه بكل قواهم، حتى أنكروا وجود الكائنات و لم يعودوا يرون في الوجود إلا هو، أما الآخرون ''فلاسفة الماديون وضعفاء الإيمان'' فقد صرفوا كل تفكيرهم ونظــرهم في المادة، حتى ابتعدوا عن إدراك الألوهية، بل أولوا المادة أهمية عظيمة حتى جعلتهم لايرون من الوجود إلا المادة، بل تمادوا في الضلالة بحيث مزجوا الألوهية في المادة، بل اســتفنوا

عنها لشدة حصرهم النظر في الكائنات، ومن هذه الفروق أيضًا، أن مسلك الأولياء مسلكٌ ذوقي، بينما مسلك الآخرين مسلكٌ عقلي، وأيضًا أَنَّ الأولياء عبّاد الله ومحبوه، بينما الفلاسفة يعبدون أنفسهم وهواهم، فأين الثري من الثريا، وأين الضياء الساطع من الظلمة الدامسة.[62]

ونحن واجدوه يميز أيضًا بين ''وحدة الشهود'' و''وحدة الوجود'' قائلاً :

'' ولكن مشرب أهل'' وحدة الشهود هو الصحو والتمييز والانتباه، بينما مشرب أهل '' وحدة الوجود'' هو الغناء والسكر، والمشرب الصافي هو مشرب الصحو والتمييز.[63]

فشيخنا يميل هنا إلى مشرب الصحوة والتمييز والانتباه، إلى الفرق بين الخالق والمخلوق، إلى الإثنينية، ولا يستحسن مشرب أصحاب الغناء والسكر، أصحاب الجمع، أصحاب الوحدة بين الخالق والمخلوق، لما في ذلك من أخطار عديدة.[64]

وبعد هذه السياحة العقلية والذوقية الممتعة والدقيقة للنورسي، ينتهي إلى أن معرفة الله تعالى الناتجة عن طريق علم الكلام، كما تبدو ناقصة وقاصرة في نظر ابن عربي ''ت 638هـ[65]، فإن المعرفة الناتجة عن طريق التصوف أيضًا ناقصة ومبتورة بالنسبة نفسها، أمام المعرفة التي استقاها ورثة الأنبياء، من القرآن الكريم مباشرة. ذلك لأن ابن عربي يقول '' لا موجود إلا هو'' لأجل الحصول على الحضور القلبي الدائم، أمام الله سبحانه وتعالى، حتى وصل به الأمر إلى إنكار وجود الكائنات،بينما المعرفة المستقاة من القرآن الكريم تمنح الحضور القلبي الدائم، فضلا عن أنها لا تقضي على الكائنات بالعدم، ولاتسجنها في سجن النسيان المطلق، بل تنقذها من الإهمال والعبثية وتستخدمها في سبيل الله سبحانه، جاعلة من كل شئ مرآة تعكس المعرفة الإلهية، وتفتح في كل شئ نافذة إلى المعرفة الإلهية.[66]

ولذا فإن الصراط المستقيم، إنما هو طريق الصحابة الكرام وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون، والمنهج القويم إنما هو منهجهم، فهم يرون أن حقائق الأشياء ثابتة، وهي القاعدة الكلية لديهم، وهم الذين يعلمون أن الأدب اللائق بحق الله سبحانه وتعالى هو قوله تعالي : {**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**} [الشورى: 11] ، أي أنه تعالى منزه عن الشبيه والتميز والتجزؤ، وأن علاقته بالموجودات علاقة الخالق بالمخلوقات، فالموجودات ليست أوهامًا، كما يدعى أصحاب وحدة الوجود، بل هذه الأشياء الظاهرة هي من أثار الله سبحانه وتعالى، إذن فليس صحيحًا قولهم ''لا موجود إلا هو'' وإنما الصحيح ''لا موجود إلا منه''، ذلك لأن الحادثات لا يمكن أن تكون القديم نفسه، أي أزلية.[67]

وعندما يشير الصحابة والمجتهدون والأصفياء وأئمة أهل البيت، إلى أن ''حقائق الأشياء ثابتة'' فإنهم يقرون بأن لأسماء الله تعالى تجليات حقيقية، وأن لجميع الأشياء وجودًا عرضيًا، أسبغه الله عليها بالخلق والإيجاد، ومع أن هذا الوجود يعتبر وجودًا عرضيًا وضعيفًا وظلاً غير دائم بالنسبة لوجود ''واجب الوجود''، إلا أنه ليس وهمًا وليس خيالاً، فإن الله سبحانه وتعالى، قد أسبغ على الأشياء صفة الوجود بتجلي اسمه ''الخلاّق''، وهو يديم هذا الوجود.[68]

هـ – الإرادة الإنسانية بين القدر والجزء الاختياري:

1– الإنسان حر في نطاق رعاية القدر:

احترم النورسي إرادة الإنسان، ونظر إليها – كحقيقة كل نظراته – نظرة قرآنية وسطية، فهو لم يلغها، وهو أيضا لم يبالغ في قدراتها حتى يتحدى – أو هكذا يتوهم البعض – الضرورات القدرية، فهي – إرادة الإنسان – إرادة جزئية – يمكن تقويتها بالإيمان، وبممارسة التدريب الإرادي الخاص بالامتناع عن السلوك الفطري المتاح، والتدريب على الأعمال الإيجابية، والتكيف مع الصبر على الطاعة والبلاء، ونجده يحذر من اليأس والقنوط والطمع وحب الظهور والخوف والحزن والاستعجال والاستبداد بالرأي والتقليد والتسويف والراحة والإسراف والرياء والعجب والأنانية.

والإنسان – في رسائل النور – هو الصنعة الإلهية للخالق سبحانه وتعالي، وهو أرقى معجزة من معجزات قدرته وألطفها، حيث خلقه البارئ مظهراً ونموذجا للكائنات بأسرها [69]، ولذلك فإن الإنسان هو الثمرة النهائية لشجرة الخلقة [70]، وللسبب ذاته جعل الله تعالي الإنسان مركزا للكون ومحورا، بل سخر له الكون بتنظيم أنواع النعم المبثوثة في الكائنات وربطها بأوامر المنافع بالتي تخص الإنسان، من منطلق أنه من غير المعقول أن يترك الصانع الحكيم – تعالى – الإنسان سُدَى، وهو الذي خلقه، أعظم نتيجة للسموات والأرض، وأكمل ثمرة من ثمرات العالم، ومن غير المعقول أن يتركه للأسباب والمصادفات [71]، وهو – الإنسان – يملك أجهزة يتمكن بها تقدير وتنمية خزائن رحمته الواسعة، وهو مخلوق على صورة خليفة في الأرض، يملك من الأجهزة الحساسة ما يتمكن بها قياس أدق دقائق تجليات أسماء خالقه الحسنى.[72]

'' رسائل النور'' حرية الإرادة البشرية، في نطاق رعاية القدر، وعندما يتحدث النورسي عن القدر، لا يخالف المعني المتفق عليه بين المدارس الإسلامية، غير أن معالجاته للقدر عليها مسحته الخاصة في تناول الأمور الفكرية بتعمق وشمولية، وإخراجها من التجريدات إلى الوقائع.

وموضوع القدر من الموضوعات التي حيرت أصحاب العقول منذ فجر التاريخ، سواء كانوا من الفلاسفة أو العلماء أو رجال الدين، وقد عني بها القرآن الكريم عناية كبيرة وأورد الإشارة إليها في آيات عديدة منها: {**وإن منْ شَيْءٍ إلاَّ عنْدَنَا خَزَائنُهُ وَمَا نُنزلُهُ إلاَّ بقَدَر مَعْلُوم** } [الحجر:473]، {**وَ كل شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فـي إمَـام مُبين**} [يس: 12]، {**وما كَانَ لنَفْس أَنْ تَمُوتَ إلاَّ بإذْن الله كتَابًا مُؤَجَّلا** } [آل عمران:145]، {**مَا أصابك منْ حَسَنَة فَمنَ الله وَمَا أَصَابَكَ مَنْ سَيِّئَة فَمنْ نَفْسكَ**} [النساء:79].

وينتهي النورسي إلى أن جميع الآيات القرآنية التي أشارت إلى موضوع "القدر"، تدل دلالة واضحة لا لبس فيها على أن القدر بيده كل شئ، وأن اللوح المحفوظ مسطور فيه دقائق حياة كل إنسان من مولده إلى موته، وأن الإنسان في تصرفاته مربوط بالقدر ومشدود بخيوط لا يراها، وفي نفس الوقت تثبت الآيات جميعها أن الإنسان مسئول عن عمله، وأنه يثاب على العمل الصالح، ويعاقب على ارتكاب السيئات، ولهذا أعدت الجنة للمتقين، والنار للمعتدين الخارجين عن النهج الإسلامي، ولكن لا يمكن أن يسأل الإنسان إلا إذا كان له قدر من الاختيار والحرية فهناك مع القدر الثابت الوجود والتصرف، حيزًا لحرية الإرادة البشرية، وعلي ذلك فالمهمة تنحصر في توجيه ذلك الخير باستثمار الروح القرآنية.

وإليك بعض التفصيل لرؤية "رسائل النور" في الإرادة الإنسانية، والمستمدة من القرآن الكريم يستهل النورسي رسالته الخاصة بالقدر، في كلماته وهي الكلمة هي السادسة والعشرون بقوله :

"إن القدر والجزء الاختياري جزءان من ايمان حالي ووجداني، يبين نهاية حدود الإيمان والإسلام، وليس مباحث علمية ونظرية، أي أن المؤمن يعطي لله كل شئ، ويُحيل إليه كل أمر، وما يزال هكذا حتى يُحيل فعله ونفسه إليه، ولكي لا ينجو في النهاية من التكليف والمسؤولية يبرز أمامه الجزء الاختياري قائلا له: أنت مسؤول، أنت مكلف.

ونتابع قراءة النورسي :

" أجل إن القدر والجزء الاختياري هما في أعلي مراتب الإيمان والإسلام، قد دخلا ضمن المسائل الإيمانية، لأنهما ينقذان النفس الإنسانية، فالقدر ينقذها من الغرور، والجزء الاختياري ينجيها من الشعور بعدم المسؤولية، وليسا من المسائل العلمية والنظرية التي تفضي إلى ما يناقص سر القدر، وحكمة الجزء الاختياري كليا بالتشبث بالقدر للتبرئة

من مسؤولية السيئات التي اقترفتها النفوس الأمارة بالسوء، والافتخار بالفضائل التي أنعمت عليه والاغترار بها وإسنادها إلى الجزء الاختياري.[73]

ونحن واجدون في هذا النص رؤية واضحة وعميقة لمسألة القدر والاختيار، من بين ملامحها:

– إن مسائل القدر والاختيار، من المسائل الإيمانية المهمة، لأنهما ينقذان النفس البشرية، فالقدر ينقذها من الغرور، لأن الله تعالى خالق الإنسان وخالق فعله، وارادة الإنسان ليست مستقلة عن الإرادة الإلهية، ويحدثنا النورسي عن بعض الآيات القرآنية الكريمة {**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ**} [النساء: 79] فيقول:

" أن ما تقتضيه النفس دائما أنها تنسب الخير إلى ذاتها، ما يسوقها هذا إلى الفخر والعجب، فعلي المرء أن لا يرى من نفسه إلا القصور والنقص والعجز والفقر، وأن يري كل محاسنه وكمالاته إحسانا من فاطره الجليل، ويتقبلها نعما منه سبحانه فيشكر عندئذ بدل الفخر، ويحمد بدل المدح والمباهاة.[74]

وتوصل شيخنا النورسي إلى أن نوازع الخير في النفس البشرية مردها في الغالبية الغالبة منها إلى القدر، وقد استثمر هذا في دعوة النفس الخيرة إلى التواضع والبعد عن الغرور وزيادة الاعتداد بالنفس الذي إذا زاد قد يخرجها عن طاعة الله، ويدفعها إلى الطغيان والخطأ، بينما نوازع الشر والرذيلة في أعماق هذه النفس ودوافعها ذاتية، وتنطلق النفس إليها مستقلة ما يتاح لها من حرية تستوجب مسئوليتها، واستثمر ذلك في دفع النفس المخطئة إلى التوبة لضمان عدم العودة إلى ارتكاب السيئات، وكان تخريجه هذا منهجا تربويا رائعا.

واستمع إلى جميل عبارته التي يقول فيها :

" إن الذي يعرف " أنا" على طبيعتها وعلى وجهها الصحيح، ويلزمها حدها،يدخل تحت بشارة " قد أفلح من زكاها"، ولكن إذا نسى "أنا" حكمة خالقه معتمدا في نفسه إنه المالك، فقد خان الأمانة، ودخل ضمن النذير الإلهي {**وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**} [الشمس: 10].[75]

وتأمل أيضا – عبارته البالغة الوضوح، يقول:

"إن الله تعالي لما خلق الخير المحض أعني الملائكة، والشر المحض أعني الشياطين، وما لا خير عليه ولا شر أعني البهائم، اقتضت حكمة الفياض المطلق وجود القسم الرابع الجامع

بين الخير والشر، إن انقادت القوة الشهوية والغضبية للقوة العقلية فـاق البشـر علـى الملائكة بسبب المجاهدة، وإن انعكست القضية صار أنـزل من البهائم لعدم العذر.[76]

وهكذا يضع النورسي من أسس التربيـة الإسـلامية، محاربـة شـهوات الـنفس وطموحاتها، سبيلاً لتطويعها للعمل الصالح، وهي عودة حقيقية وعلميـة إلى أسـلوب القرآن الكريم في تربية النفس البشرية.

والمحصلة لكل ما تقدم، أن المؤمن الكامل، المطمئن قلبه، يفوض أمر الكائنات كلها، ونفسه كذلك، إلى الله سبحانه وتعالى، فيتحمل المسئولية، مستندا إلى الجزء الاختيـاري الذي يعتبره مرجعًا للسيئات، وينظر إلى القدر في الحسنات والفضائل الصادرة عنه، لئلا يأخذه الغرور، فيشكر ربه بدل الفخر، ويرى القدر في المصـائب الـتي تنـزل بـه فيصبر.[77]

– ومن بين ملامح رؤية النورسي الواضحة والعميقة لمسألة القـدر والاختيـار، أن الجزء الاختياري، ينجي الإنسان من الشعور بعدم المسؤولية، لأن الله تعالي لمـا كلفـه خيره، إذا أن التكليف لا يكون بلا اختيار، وهو – الجزء الاختياري – لا ينافي القدر، بل القدر يؤيد الجزء الاختياري، لأن القدر نوع من العلم الإلهي وقد تعلق العلم الإلهـي باختيارنا، ولهذا يؤيد الاختيار ولا يبطله، فكل شيء – كبيرا أو صـغيراً – يـدخل في دائرة الوجود، فهو بقدر الله تعالي، والقدر هو علم الله تعالى، بما يقع في ملكه.

– وهنا يصل بنا شيخنا إلى مسألة عقائدية كلامية ذات أهمية جليلة لـدي العلمـاء المحققين، وتمثل أعمق وأعضل مسألة في القدر، وهي كيف يمكن التوفيق بـين القـدر والجزء الاختياري.

وتقدم لنا رسائل النور حلا لهذه المعضلة يتمثل في التالي::

أن عدم علمنا بكيفية التوفيق – بين القدر والجزء الاختياري – لا يدل على عـدم وجوده، وأن كل إنسان يشعر بالضرورة أن له إرادة واختيارا في نفسه، وأن القدر يؤيد الجزء الاختياري، لأن القدر نوع من العلم الإلهي – وقد تعلق العلم الإلهي باختيارنـا، ولهذا يؤيد الاختيار ولا يبطله.[78]

وتدخلنا رسائل النور – وهذه إحدى سماتها التي تميز بها – في حوار مع بعض الفرق الكلامية التي تناولت هذه المسألة وتقدم رأيا تتميز به عن هذه الفرق، حـين تـري أن القدر يتعلق تعلقاً واحداً بالسبب وبالمسبب معا، فالإرادة لا تتعلق مـرة بالمسـبب ثم بالسبب مرة أخرى، أي أن هذا المسبب سيقع بهذا السبب، لذا يجب ألا يقال : مـادام

موت الشخص الفلاني مقدراً في الوقت الفلاني، فما ذنب من يرميه ببندقيـة بإرادتـه الجزئية ؟ إذ لو لم يرمه لمات أيضًا؟

ويوضح لنا شيخنا النورسي لم يجب الا يقال ذلك، يقول:

" لأن القدر قد عين موته ببندقية ذاك، فإذا فرضت عدم رميه، عندئذ تفرض تعلـق القدر، فبم تحكم إذن على موته، إلا إذا تركت مسلك أهل السنة والجماعة، ودخلـت ضمن الفرق الضالة التي تتصور قدراً للسبب للمسبب، كما عند الجبرية، أو تنكر القدر كالمعتزلة، أما نحن أهل الحق فنقول :-

لو لم يرمه، فإن موته مجهول عندنا، أما الجبرية فيقولون، لو لم يرمه لمات أيضا، بينما المعتزلة يقولون لو لم يرمه لا يموت ".[79]

2- الاسباب لا تأثير لها إيجاداً ولا خلقاً:

تظهرنا " رسائل النور" على أن الأسباب لا تعمل كيفما تشاء، حسب هواها وبلا بصيرة، بل تقوم بمهمتها وفق أمر يفرض عليها من الخالق عز وعلا، ويدعونا النورسي إلى تأمل قوله تعالى: {**ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم** } فيقول :

تأمل " شاء" تجد أنَّها إشارة إلى أن الرابط بين السبب والمسبب إنما هـي المشـيئة والإرادة الإلهية، فالتأثير للقدرة، وما الأسباب إلا حجاب العزة والعظمة لئلا تباشر يـد القدرة بالأمور الخسيسة في ظاهر نظر العقـل، والتصريح بلفظـه "الله" إشارة إلى زجر الناس عن الإبتلاء بالأسباب والإنغماس فيها، وأيضا لدعوة الأذهان إلى رؤية يـد القدرة خلف كل الأسباب.

وأما "لذهب" فإشارة إلى أن الأسباب ليس مسلطة ومستولية على المسببات، حتى إذا رفعت بقيت المسببات في جوف العدم يلعب بها يد التصادف وتشتتها بالاتفاق، بل يد القدرة حاضرة خلف الأسباب، فـ "لذهب" رمز إلى ان الحواس الخمس الظـاهرة ليست متولدة عن الطبيعة، ولا لازمة لتجاويف السمع والبصر، بل إنما هي هداياه تعالى وعطاياه، وما التجاويف والأسباب إلا شرائط عادية "2" ويعطينا النورسى أمثلة على أن الأسباب تقوم بمهمتها وفق أمر يفرض عليها، منها أي من هذه الأمثلة - أن الآيـة الكريمة {**قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيم**} [الأنبياء : 69]، تبين معجزة سـيدنا إبراهيم عليه السلام، ومن إشاراتها اللطيفة، أن النار — كسائر الأسباب - ليس أمرهـا بيدها، فلا تعمل كيفما تشاء حسب هواها وبلا بصيرة، بل تقوم بمهمتها وفـق أمـر يفرض عليها، فلم تحرق سيدنا إبراهيم لأنها أمرت بعدم الحرق، وأن للنار درجة تحرق

ببرودهما، أي تؤثر كالاحتراق، فالله سبحانه يخاطب البرودة بلفظه ''ســـلاما'' بـــأن لا تحرقي أنت كذلك إبراهيم، كما لم تحرقه الحرارة، أي أن النار في تلك الدرجـــة نـــؤثر ببرودهما كأنها تحرق، فهي نار وهي برد.[80]

مثال آخر على أنه لا تأثير للأسباب قط، عندما ألقي بسيدنا يونس بن متى – عليـــه السلام – إلى البحر، فالتقمه الحوت، وغشيته أمواج هائجة، فداهمته الرهبة والخوف من كل مكان وانقطعت أمامه أسباب الرجاء وانسدت أبواب الأمل، كانت مناجاته الرقيقة وتضرعه الخالص الزكي: {**لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِين**} [الأنبيـاء: 87] واسطة نجاة ووسيلة خلاص، وسر هذه المناجاة العظيم هو، أن الأسباب المادية قد هوت كليا في ذلك الوضع المرعب، وسقطت نهائيا، فلم تحرك ساكنا، و لم تترك أثراً، فلا ينجيه سبب، ولا يخلصه أحد، ولا يوصله إلى ساحل السلامة، إلا من بيده مقاليد الليل وزمام البحر والحوت معاً، ومن يسخر كل شيء تحت أمره، حتى لو كان الخلق أجمعين تحت خدمته عليه الســـلام ورهـــن إشارته في ذلك المـــوقف الرهـيب، مـــا كانـــوا ينفعونه بشيء.[81]

وكل هذا يظهر بداهة أن وراء الأسباب رباً حكيماً، رحيما، وأن ما نراه من أشياء ليست إلا من صنعه وإبداعه سبحانه، وإن الأسباب عاجزة عجزاً تامـــاً عـــن الخلـــق والإيجاد، إذ ''كيف يتصور أن تكون الأسباب الطبيعية البسيطة الجامدة التي لا شعور لها ولا اختيار قابلة لإيجاد الموجودات، ولاختراع أفرادها التي كل منها صنعة عجيبة مـــن معجزات القدرة، فكل الأفراد مع سلاسلها تشهد بلسان حدوثها وإمكانها شهادة قاطعة على وجوب وجود خالقها جل جلاله''.[82]

وأما حكمة وضع الأسباب فتتمثل في كونها حجب ومرايا تصرف القدرة الإلهية[83] واستمع إلى النورسي يقول:

'' يا أيها الغافل المنغمس في الأسباب إن الأسباب حجاب تصرف، إذ العزة والعظمة تقتضيان الحجاب، لكن المتصرف الفعال هو القدرة الصمدانية، إذ التوحيـــد والجـــلال هكذا يقتضيان.[84]

وهكذا، فمن يطالع ''رسائل النور'' يجد تفردها بما يميزها عن غيرها من الـــدعوات الإسلامية المعاصرة، ذلك أن النورسي ركز فيها وبشدة على القرآن الكـــريم وفهمـــه وهضمه وتمثيله وتفسيره تفسيراً لا يكتفي بمجرد الإفهام ونقل المعنى، ولكن يتعدى ذلك إلى التأثير في النفس وصبغ السلوك، وهو بهذا السلوك يحاول أن يتعدى بالرسائل مرحلة

مجرد الدعوة، ليصل بها إلى مرحلة البرنامج العملي المنفذ، وكانت وسيلته إلى هـــذا، ألا يتوقف عند مجرد الإعلام أو إقناع الفكر، ولكن يتجاوزه إلى التأثير في أعماق الشـــعور والوجدان، وإثارة الإرادة للحركة والعمل.

وكانت دعوته، دعوة كريمة جامعة لا تعرف التعصب، ولا تؤمن بالفرقة، تمد الأيدي الحانية إلى المسلمين جميعا، تحرص على تحريك الإيمان في قلـــوبهم، وبـــذور المحبـــة في نفوسهم، تحفر الخندق الواحد للأمة الواحدة، وتوجه أسلحتها المادية والمعنوية إلى الكفر والإلحاد، تؤمن بالعمل الدؤوب، تعشق التواضع والفصاحة، وتكره الكبرياء والخذلقـــة، والاستعلاء على الآخرين وقارئ الرسائل يعيش أكثر من حقيقة، منها، أن النورســـي لم يكن موهبة فحسب، بل كان أيضًا موقفًا، ولم يكن موهبة وموقفًا فحسب، ولكنه كان فوق ذلك عملاً دائبًا، وجهادا لا يفتر، ولم يكن موهبة وموقفًا وعملاً فحسب، ولكنه كان مع ذلك كله فدائيًا باع الدنيا كلها في سبيل الآخرة ومرضاة الله ونفع الناس.

ومن حقائق ''رسائل النور'' أنه حيث أن ما نظنه حياة، ما هو إلا الدقيقة التي نحن فيها، فما قبلها من زمان وما فيه من أشياء دنيوية كله ميت، وما بعد تلك الدقيقة مـــن زمان وما فيه كله عدم، لا شيء، بمعنى أن ما تفتخر به ونفتر به من حياة فانية ليس إلا دقيقة واحدة، حيث أن الأمر هكذا، فوجب العزوف عن الحياة المادية النفسية، والصعود إلى درجات حياة القلب والروح والسر.

ووجب أن نعيش مع شيخنا النورسي هذه الإشراقات، ونقول معه:

فيا نفسي:

مادام الأمر هكذا، أبكي كما يبكي قلبي واستغيثي وقولي:

أنا فان، من كان فانيًا لا أريد.

أنا عاجز، من كان عاجزًا لا أريد.

سلمت روحي للرحمن، سواه لا أريد.

بل أريد، ولكن حبيبًا باقيًا أريد.

أنا ذرة.

ولكن شمسًا سرمدياً أريد.

أنا لا شئ ومن غير شئ، ولكن الموجودات كلها أريد.

رحم الله شيخنا النورسي رحمة واسعة، وأجزل مثوبته، ورفع مقامه، وألحقه بموكب الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

مصادر الدراسة

"1" بديع الزمان سعيد النورسي : الكلمات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1412 1992 م.
"2" بديع الزمان سعيد النورسي: المكتوبات، تحقيق إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1414هـ 1992 م.
"3" بديع الزمان سعيد النورسي: اللمعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 14131993 م.
"4" بديع الزمان سعيد النورسي: الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1414هـ 1994 هـ .
"5" بديع الزمان سعيد النورسي: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة.
"6" بديع الزمان سعيد النورسي: المثنوي العربي النورى، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الأولى، سوزلر للنشر، القاهرة، 1415 هـ 1995
"7" بديع الزمان سعيد النورسي: الملاحق في فقه دعوة النور، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1416هـ 1995 هـ.
"8" بديع الزمان سعيد النورسي: الشعاعات، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1416هـ 1995هـ .
"9" بديع الزمان سعيد النورسي: سيرة ذاتية، إعداد ترجمة إحسان قاسم الصالحي، الطبعة الثانية، سوزلر للنشر، القاهرة، 1419هـ 1998 هـ .
"10" بديع الزمان سعيد النورسي: في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الإسلامي، استانبول "27 – 29/ 1992 م، سوزلر
"11" إحسان قاسم الصالحي: بديع الزمان النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره، الطبعة الثالثة، مطابع الوفاء المنصورة، 1998
"12" الدكتورمحسن عبد الحميد، النورسي متكلم العصر الحديث، سوزلر للنشر، القاهرة، 1995 .
"13" محمد التهامي، النورسي أنوار لا تغيب، الطبعة الأولى، القاهرة، 1418 – 1998 م.

الهوامش:

1 راجع كليات رسائل النور، الملاحق، ص 202 ، وما أجمل عبارته التي تشبه فيهـا نفسـه والرسـائل، يقول: "لا تبحث ما في عناقيد العنب اللذيذة من خصائص في سيقانها اليابسة، فأنا كتلك الساق اليابسـة لتلك الأعناب اللذيذة، ولو بلغ صوتي إلى أرجاء العالم كافة لكنت أقول بكل ما أوتيـت مـن قـوة: إن سوزلر "الكلمات" جميلة رائعة،وأنها حقائق، وأنها ليست مني وإنما هي شعاعات التمعت مـن حقـائق القرآن الكريم، فلم أجّمل أنا الحقائق القرآن، بل لم أتمكن من إظهار جمالها، وإنمـا الحقـائق الجميلـة للقرآن هي التي جملت عباراتي، وما مدحت القرآن بكلماتي، ولكن مدحت كلماتي بالقرآن.

وتنظر الرسائل إلى القرآن الكريم – الذي تتلمذ عليه النورسي – على أنه ثلاثـة كيانـات، الأول هـو القرآن المقروء المتمثل في الكتاب المنـزل، والثاني هو الكيان المشهود المتمثل في الكون كله، والكيان الثالث هو الكيان الناطق المتمثل في الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وسنته الشريفة بأقوالـه وأعماله.

وجدير بالذكر أنه رغم انتشار الرسائل انتشارًا واسعًا للغاية، فقد لوحظت عليها أكثـر مـن ملاحظـة، أولها أن أحدًا لم يقم بنقدها ابتداءً من العلماء ومرورًا بالفلاسفة وحتى الأولياء الصالحين، لقد عرضـت على الناس جميعًا، فلم يتناولها أحد بالنقد، وكان الإعجاب هو الصفة الغالبة على شعور الذين تلقوهـا، وهذا كله يعني أن الرسائل – وكما يقول الصوفية – لون من ألوان الفيض الإلهي علـى قلـب بـديع الزمان سعيد النورسي، وكما وصفها أحد تلاميذه "لمعات من نور الكتاب المبين".

2 أديب إبراهيم الدباغ، هوامش على فكر بديع الزمان سعيد النورسي وسيرته الذاتية، ضمن كتـاب "بـديع الزمان سعيد النورسي" – في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكـر الإسـلامي، اسـتانبول "27 – 29 / 1992م" سوزلر، ص 23 – 24.

3 هي إشارات الإعجاز في مكان الإيجاز، تعليقات، قزل إيجاز، الخطبة الشامية – راجع بديع الزمان سعيد النورسي، سيرة ذاتية، إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر، القاهرة، الطبعة الثانية، 1998م، ص 35 – 36.

4 وهي نقطة، شعاعات، سنوحات، مناظرات، محاكمات ، طلوعات، لمعات، رموز، إشـارات، خطـوات ستة، المحكمة العسكرية العرفية، نوى الحقائق.

5 احسان قاسم الصالحي، بديع الزمان سعيدالنورسي، نظرة عامة، عن حياته وآثـاره، الطبعـة الثالثـة، مطابع الوفاء، المنصورة، 1988م، ص 1325، 136.

6 سيرة ذاتية، ص10.

7 نفس المصدر ونفس الصفحة.

8 المثنوي العربي النورسي، ص 428، المكتوبات، ص 425، 426

9 تكشف هذه المقارنة عن عمق اطلاع النورسي الفلسفي، وخاصة على الفلسفة الحديثة والمعاصرة، التـي شكّلت بعضًا من ملامح عصره الفكري.

ويقبل النورسي الفلسفة في حالة واحدة، وهي إذا رأى أنها استجارت بالدين وانقادت إليه، وأصبحت في طاعته، فحينئذ تنتعش الإنسانية بالسعادة وتعيش حياة إجتماعية هنيئة "الكلمات، ص 639".

10 كليات رسائل النور، الكلمات، الكلمة الثانية عشرة، ص 145

11 الكلمات، ص 145.

12 الملاحق، ملحق اميرادغ، وأيضًا الكلمات ص 508، 512، 644، 646، 648. وجدير بالذكر ان موقف النورسي من الجوانب العلمية من الحضارة الغربية، هو موقف المسلم الذي فرض عليه الإسلام، لآن يتحرك لاكتشاف قوانين الحياة والاستفادة منها لإقامة الحضارة وبناء التقدم، ولذلك فإنه دعا المسلمين للأخذ بأسباب الحضارة الصناعية، لأنها من ضرورات إقامة الحياة القوية.

وهو يذهب إلى أن مجيء الحضارة من الغرب، أهله غيرالمسلمين، لا يكون دليلاً على حرمة الآخذ بها، معنى ذلك أن شيخنا بعيد عن التزمت والتعصب، بل والجهل الذي يعيشه البعض من مفكرينا الآن الذين يصفون أنفسهم بأنهم مفكرون مسلمون، هو يدعو إلى ضرورة الأخذ بأسباب الحضارة الصناعية، لأنها من ضرورات إقامة الحياة القوية، دون أن يكون هذا على حساب القيم، الخلق، الدين الحق، هو مفكرٌ متسق متوازن، متناغم، مع نفسه، ولم لا، وهو يستمد، وهو ينهل، وهو يأخذ، من التوازن الحق، من الإتساق الحق، من التناغم الحق، من القرآن الكريم.

13 الدكتور محسن عبد الحميد، النورسي متكلم العصر الحديث، سوزلر للنشر، مدينة نصر، القاهرة، 246، 1995.

14 محمد التهامي، النورسي أنوار لا تغيب، الطبعة الأولى، القاهرة، 1418هـ، 1998، ص 20.

15 ورأى النورسي هذا، تضمنته إجابته عن سؤال وجهه مفتى الديار المصرية الشيخ محمد بخيت بن حسين المصطفي الحنفي "ت سنة 1354هـ" في زيارة له لاستانبول، وكان النورسي في الثلاثين من عمره، أما السؤال فهو: ما رأيك في الحرية الموجودة الآن في الدولة العثمانية، وماذا تقول في مدنية أوربا، وأما الإجابة فهي: أن الدولة العثمانية حبلي حاليًا بجنين أوربا وستلد يومًا ما، أما أوربا فهي حبلى بجنين الإسلام وستلد يومًا ما. راجع إحسان الصالحي، بديع الزمان.، ص 31

16 النورسي متكلم العصر الحديث، ص 51، 52. وإليك طرفًا من خبر صراحته وشجاعته وقناعته بقضيته ورسالته وتضحيته في سبيلها بالغالي والرخيص.

أ – في سنة 1907م، يقدم النورسي طلبًا إلى السلطان عبد الحميد بفتح المدارس التي تُعلم العلوم الكونية الحديثة بجانب العلوم الإسلامية، ويرسل شيخنا إلي لجنة التفتيش العسكري، ويرفض محاولة رئيسها استمالته بمرتب سخي، ويهدده رئيس اللجنة، قائلاً: "إن العاقبة لن تكون سارة" يرد شيخنا الشجاع : " عندما جئت إلى اسطنبول كنت واضعًا روحي على كفي، اعملوا ما شئتم، فإني أريد أن أوقظ أبناء الأمة، وأقوم بهذا العمل لأني فرد من هذا البلد، لأقتطف من ورائه منفعة شخصية" [راجع : نجم الدين شاهين، بديع الزمان سعيد النورسي وجوانب مجهولة من حياته، ص 95 – 96].

ب – جاء في دفاعه الصريح الجريء البليغ، ردًا على التهديد بشنقه بدعوى مطالبته بعودة الشريعة، "لو كان لي ألف روح، لكنت مستعدًا للفداء به في سبيل حقيقة شرعية واحدة، ذلك لأن الشريعة هي السبيل الوحيد للسعادة، وهي العدالة المحضة، وهي الفضيلة والشريعة الحقة.

راجع سعيد النورسي، رجل القدر في حياة أمة، مخطوط بقلم المهندس أورخان محمد على، ص 51 – 55]

جـ – أثناء زيارة القائد العام الروسي، المعسكر المأسور به شيخنا، يقوم له الأسرى احترامًا، وإن شئت الدقة قلت خوفًا، فيما عدا شيخنا النورسي الذي تتشكل له محكمة عسكرية، وينصح بالاعتذار للقائد العام طلبًا للعفو، وتأتي إجابة النورسي، الرجل الذي ملأ الإيمان قلبه، المنتسب بكل جوارحه إلى العقيدة، "إنني راغب في الرحيل إلى دار الآخرة، والمثول بين يدي الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فأنا بحاجة إلى جواز سفر فحسب للآخرة، لا أستطيع أن أعمل بما يخالف إيماني..".

قوة وشجاعة وثباتًا وإيمانًا بالحق واعتزازًا بالعقيدة،و بالانتساب إلى أفضل نسب، وأعزه وأكرمه وأنبله وأسماه، نسب الدين الإسلامي، أقول أرأيت موقفًا يظهر كل هذه المعاني والقيم عند كل مصلحينا ومجددينا، كهذا الذي وقفه شيخنا النورسي، لا أعتقد.

د- يقول لمصطفى كمال، عندما بدأت الحكومة في نصب تماثيله، تماثيل مصطفى "إن هجوم آيات قرآننا العظيم إنما ينصب على التماثيل، أما النصب التي يجب على المسلمين إقامتها، فهي المستشفيات والمدارس،وملاجئ الأيتام والأقسام الداخلية للطلبة ودور العبادة وشق الطرق..". [راجع النورسي رجل القدر... ص 110.

17 راجع: الشعاعات ،ص 409.

18 راجع " إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز"، ص 35،ص 87

19 الكلمات، ص 552؛ اللمعات ص130 وما بعدها.

20 اللمعات ص110؛ صيقل الإسلام ص502

21 الكلمات ص360.

22 راجع كليات رسائل النور – اللمعات، اسطنبول 1993م، ص 373، 386.

23 المصدر نفسه ص 378

24 اللمعات ص 359

25 اللمعات ص560؛ الكلمات ص 869

26 صيقل الإسلام ص 53

27 الكلمات ص250؛ و المقام الثاني من المكتوب الرابع والعشرين

28 راجع الكلمات، ص 250، 387، 703

29 صيقل الإسلام، ص 502

30 الشعاعات، ص37

31 إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص 35

32 إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص192

33 راجع الشعاعات، ص 38

34 اللمعات ص 13

35 الشعاعات، ص523،317

36 راجع اللمعات، ص 323

37 المثنوي العربي النوري، ص 374، الملاحق، ص 247، الشعاعات ص 243، 244 واللمعات. ص323

38 المكتوبات ص 366.

39 نفس المصدر ص 9

40 نفسه ص 293

41 المثنوي العربي النوري: ص50

42 ص 318

43 اللمعات، ص 117.

44 نفسه، ص 118.

45 الكلمات، ص 248 – 249

46 نفسه، ص 249.
47 الكلمات، ص 360 ومابعدها
48 اللمعات، ص 16
49 الكلمات، ص 349، 534، الشعاعات، ص 37.
50 اللمعات، ص 366.
51 الكلمات، ص 413.
52 راجع الكلمات، ص 794 – 795.
53 المكتوبات، ص 372.
54 اللمعات، ص 55.
55 الكلمات، ص 617.
56 المكتوبات، ص 579.
57 المثنوي العربي النوري، ص 432.
58 راجع المكتوبات، ص، 107
59 المصدرنفسه،ص 108.
60 لأن أصحابه يؤمنون بالله إيماناً عميقًا إلى درجة يعدون الكون وجميع الموجودات معدومًا بجانب حقيقة الوجود الإلهي، المكتوبات، ص 580.
61 المكتوبات، ص 579. ويصف النورسي ابن عربي (ت 638هـ) قائلا: إنه خارقة الحقيقة وداهية علم الأسرار، وهو – ابن عربي – لا يخدع ولكن ينخدع، فهو مهتد، ولكنه لا يكون هاديًا لغيره في كل ما كتبه، فما رآه صدق وصواب، ولكن ليس هو الحقيقة، راجع ـ اللمعات، ص 52.
62 المثنوي العربي النوري، ص 433، وراجع في هذه المسألة أيضًا صيقل الإسلام، ص 133 وما بعدها. ويحسم النورسي هذه الفروق بين التصورين– الماديين والأولياء – في ص 132 من صيقل الإسلام، يقول : الإنصاف الانصاف أيها الناس! فالبعد بين المذهبين بعد الثرى عن الثريا، أقسم بالله الذي خلق المادة بأنواعها وأشكالها، لا أرى في الدنيا أبشع وأخسى وأنعى على صاحبه بانحراف مزاج عقله من الرأى الأحمق الذي ينتج التماس بين هذين المسلكين.
63 المثنوي العربي النوري، 434.
64 راجع في التمييز بين "وحدة الشهود" و " وحدة الوجود"، صقيل الإسلام، ص 132
65 راجع رسالة ابن عربي – الموجهة إلى فخر الدين الرازي "544 – 606هـ / 1150 – 1210م" والتي قال له فيها : " إن معرفة الله غير معرفة وجوده "، أي أن ما بينه أئمة أصول الدين وعلماء الكلام فيما يخص العقائد ووجود الله سبحانه وتوحيده غير كاف في نظر ابن عربي.
66 المكتوبات ،ص 424، 425
67 المكتوبات، ص 106، 425، 579، 580، اللمعات، ص 61 وما بعدها، الكلمات، 561 وما بعدها. فالموجودات، ما سوى الله، ليست خيالية ووهمية، وإنما لها وجود، وإن كان عرضيًا وضعيفاً وظلاً غير دائم بالنسبة لوجود، "واجب الوجود" القديم،الخالق، الذي "ليس كمثله شئ".
68 المكتوبات، ص 107
69 راجع الكلمات، ص 349.
70 المصدر نفسه، ص 204.
71 المكتوبات ص، 307.

72 نفسه، ص،473
73 الكلمات، ص 541
74 المكتوبات، ص ،594
75 الكلمات، ص673، وأيضا المثنوي العربي النوري " ص 221.
76 إشارات الإعجاز، ص 237
77 الكلمات، ص 544.
78 راجع الكلمات ،ص 545.
79 المصدر نفسه، ص 546 –547 وراجع إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، ص 79 – 80.
80 الكلمات، ص 288.
81 اللمعات، ص6 وما بعدها
82 إشارات الإعجاز، ص 152.
83 راجع في ذلك: المثنوي العربي النـوري ص 42 – 43، 50، 501، 781، 189، 195، 210، 350 – 351، وأيضاً صيقل الاسلام ص 74.
84 المثنوي العربي النوري، ص39